دراسة التماسك الصوتي في سورة (ق)

علي أصغر ياري اصطهباناتي
أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية و آدابها بجامعة الشهيد باهنر ـ كرمان ـ إيران
ayari57@gmail.com

A study of phonemic coherence in Surat Al-Qaf

Ali asgarhYariAisthbanati
Assistant Professor in the Department of Arabic Language and Literature at ShahidBahner University , Kerman , Iran

الملخص:

((نحو النص)) من المصطلحات الحديثة نسبياً في الدراسات اللسانية والأدبية وهو مصطلح ظهر في منتصف الستينيات أمام مصطلح ((نحو الجملة))حيث ركّز على هذا الاعتقاد بأنّ أعلي وحدة لغوية و أشدّها ليست ((الجملة)) بل ((النص)). بعبارة أخرى المدروس في معالجة النصوص ليست الجملة بل النصّ.والتماسك و الالتحام هو المحور الرئيس في دراسات نصّية حيث توجد لهذا التماسك صور و مظاهر بما فيها التماسك النحوي و التماسك الدلالي و التماسك المعجمي و التماسك الصوتي. يتطرّق هذا البحث ضمن المنهج الوصفي ـ التّحليلي و بناءً على نظرية نحو النص إلى دراسة التماسك الصوتي في سورة ((ق)) وفي فواصلها بالتّحديد؛ لأنّ التماسك الموجود في الأصوات عادةً يظهر في نهاية الآيات أي فواصلها.درسنا ما أدّى إلى التماسك الصوتي في فواصل هذه السّورة من الانزياح في الحذف، والانزياح في التقديم والتأخير كما درسنا الحصيلة الرئيسة لهذا التماسك ألا وهي الإيقاع الصوتي المنسجم. من جانب آخر درسنا التكرار و ما له من التماسك الإيقاعي في جميع فواصل سورة ((ق)). فأخيرًا تمّ معالجة الأوزان التفعيلية الخاصّة للفواصل فوردت معظم الفواصل على وزن ((فاعلان)) عند الوقف و ((فاعلاتن)) عند الوصل.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم، نحو النصّ، التماسك الصوتي، سورة (ق).

Abstract:-

"Linguistics of the text" is a relatively modern term in linguistic and literary studies. It is a term that appeared in the mid-1960s in front of the term "Linguistics of the sentence", where it focused on this belief that the highest and strongest linguistic unit is not the "sentence" but the "text". In other words, what is studied in text processing is not the sentence but the text. Cohesion and cohesion is the main focus of textual studies, as there are images and manifestations of this cohesion, including grammatical cohesion, semantic coherence, lexical coherence and phonological coherence. This research deals with, within the descriptive-analytical approach and based on the text-oriented theory, to the study of phonological cohesion in Surat "Al-Qaf" and in its commas specifically. Because the consistency found in the sounds usually appears at the end of the verses. We studied what led to the phonemic coherence in the intervals of this surah, such as shifting in deletion, shifting in forwarding and delaying, and we also studied the main outcome of this coherence, which is the harmonious phonemic rhythm. On the other hand, we studied the repetition and its rhythmic coherence in all the breaks of Surah "Al-Qaf". Finally, the measure of the lyrics were dealt with, and most of the lyrics were based on the measure of "Faela'n" at the Waqf and "Faela'ton" at the Wasl.

Keywords: The Holy Qur'an, textual syntactic, phonemic coherence, Surat Al-Qaf.

المقدمة:

ظهر مصطلح ((نحو النص)) في منتصف الستينيات فأخذ يطبَّق على النصوص الأدبية والقرآنية منذ ظهوره فهو فرع من فروع علم اللغة يذهب إلى أن أعلي وحدة لغوية و أشدّها ليست ((الجملة)) بل ((النص))، فمن الطبيعي أن يهتمّ الباحثون بمنهج جديد قد يساعدهم في دراسات استكشافية لكوامن النصّوص وجماليتها. يُعبر عن هذا المصطلح في اللغة الإنجليزية بـ ((Textologie)) ((ولما كان علم الأدب لا يهتم سوي بالنصوص الأدبية، و علم النص يتكئ بصفة خاصة على مجال اللسانيات، بدراسة الملفوظات اللغوية بكليتها و الأشكال و الأبنية المختصة بها، والتي لا يمكن وصفها بواسطة القواعد اللغوية، من هذه الزاوية فإن علم النص يتقرب من الميدان الذي كان مخصصا للبلاغة، بحيث يرى العلماء أنه الممثل الحديث لها.)) (فضل، ١٩٩٢م: ٨)

و((التحليل النصي إذن يبدأ من البنية الكبرى المتحققة بالفعل و هي تتسم بدرجة قصوي من الانسجام و التماسك و يشرح لنا علماء النص الشروط التي تتيح لنا أن نعرف ما إذا كانت المتوالية النصية متماسكة أم لا، على اعتبار أن هذه الشروط هي التي يتوقف عليها وجود النص أو الاعتداد به.)) (فضل، ١٩٩٢م: ٢٣٦)

التماسك أو الالتحام هو المحور الرئيس في دراسات نصّية فقد ((أخذت دراسة التماسك حيزاً كبيراً من اهتمام علماء النصّ؛ وذلك راجع إلى ما رأوا من أهمية التماسك في إبراز دلالة النصّ، ومضمونه ومن ثمّ كان الاهتمام كبيراً بالتّماسك، وأثره في إبراز دلالة النص، وعلاقته بنظم التفكير)) (جمعة محمد، ٢٠١٧: ٣٢٥ و ٣٢٦) توجد لهذا التماسك صور و مظاهر بما فيها التماسك النحوي و التماسك الدلالي و التماسك المعجمي و التماسك الصوتي. ما نعالجه في بحثنا هذا هو التماسك الصّوتي في سورة ((ق))، و تحديداً في فواصل الآيات؛ لأنّ التماسك الموجود في الأصوات عادةً يظهر في نهاية الآيات أي فواصلها.

قد اخترنا سورة ((ق)) نموذجا لدراسة التماسك الصوتي لما لهذه السّورة من مكانة عظيمة، فهي من السّور المكية التي تشتمل على خمس وأربعين (٤٥) آية، و عدد كلماتها: ثلاثمئة وخمس وسبعون كلمة. متناسقة في الإيقاع وموزون بجرسها الإيقاعي. فيهمّنا أن ندرس التماسك الصوتي و الإيقاعي لهذه الفواصل وما أدّي إلى هذا التّماسك.

((الفاصلة في القرآن هي الكلمة الّتي تختم بها الآية، و بها يتمّ معناها، و يزداد وضوحاً و جلاءً.)) (حمدان، ١٩٩١م: ٤١) و بعبارة أخرى ((هي كلمة آخر الآية كقافية الشّعر و قرينة السّجع.)) (الزركشي، لاتا، ج ١: ٥٣) و هناك خلافات في تسمية الفاصلة في القرآن الكريم أو السجع وأشار بعض العلماء بأنّه لا يجوز أن نقول أن في القرآن سجع وبعضهم يسوّغون ذلك. قال الّذين لا يسوّغون تسمية السّجع في آي القرآن الكريم: ((أمّا مناسبةُ فواصل، فلقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ و أمّا تجنّب أسجاع، فلأنّ أصلَه من سجع الطّير، فشُرّفَ القرآن الكريم أن يستعار لشيءٍ فيه لفظٌ هو أصلٌ في صوت الطّائر، و لأجل تشريفه عن مشاركة غيره من الكلام الحادث في اسم السّجع الواقع في كلام آحاد النّاس، ولأنّ القرآن من صفات الله عزّ وجلّ فلا يجوز وصفُه بصفةٍ لم يرد الإذن بها وإنْ صحّ المعنى.)) (الزّركشي، لاتا، ج ١: ٥٤) و على كلٍّ لا نجدُ خلافاً كبيراً بين الفريقين في ماهيّة نهاية الآيات بل هما ينزحان من دلو واحدة، وإن اختلفا في طريق الورود، فنحنُ نسمّي الفاصلة للقرآن في مقالنا هذا لتشريف القرآن الكريم.

أما نحو النصّ و التماسك الصوتي خاصّةً فيعتبر مدخلاً للكشف عن بعض القيم الجمالية الموجودة داخل النّصوص الأدبية بما فيها آيات القرآن الكريم كنصٍّ أدبيٍّ رائعٍ و من بين هذه الآيات ركّزنا على الفاصلة التي هي من مظاهر الجمال الصوتي وتماسكه.

يهدف هذا المقال بناءً على المنهج الوصفيّ التحليليّ وبناءً على نظرية نحو النصّ إلى دراسة الإيقاع الذي هو من مظاهر التماسك الصوتي في فواصل سورة ((ق)) وما يؤدّي إلى هذا التماسك من الانزياح والتكرار و التلاؤم بين المفردات في الفواصل، فعلى هذا نحاول أن نُجيب عن سؤال أساسي:

كيف يتمّ التماسك الصوتي في فواصل هذه السّورة على أساس نظرية نحو النصّ؟

جدير بالذّكر هنا أنّ هذا المقال لا يهدف إلى تطبيق نظرية لسانية خاصّة على سورة من سور القرآن الكريم؛ إنّما نريد أن ندرس قسماً من القيم اللّغوية و الجمالية في فواصل سورة ((ق)).

سابقة البحث

رأينا في سوابق البحث دراسات عديدة في ((التماسك النصي في القرآن)) ولكن أقربها

إلى بحثنا ما يلي:

((أثر النحت في تماسك النص القرآني سورة "ق" نموذجاً)) مقالة من الباحث محمد عويس جمعة محمد صبرة، في حولية كلية اللغة العربية بالزقازيق حيث ركّز الباحث على دور النعوت في تماسك النص القرآني في سورة ((ق)) ولم يتطرّق إلى التماسك الصوتي في هذه السّورة.

((التماسك النصّي في جزء عم)) وهي رسالة جامعية من إعداد الطالبة نوال فالح محمد ربابعة في قسم اللغة العربية بجامعة اليرموك ودرست فيها الباحثة كل أنواع التماسك بما فيها التماسك النحوي و الدلالي والصوتي و... في الجزء الثلاثين من القرآن الكريم.

حسب ما بحثنا لم نعثر على دراسة مرتبطة بالتّماسك الصوتي في فواصل سورة ((ق)) فيمكن أن نعتبر هذا البحث جديداً غير مسبوق.

التماسك الصوتي للفواصل

التّماسك لغة من مَسَك به و أمسَكَ و تماسَكَ كلُّه بمعني احتبسَ. و في الصّحاح اعتصم به و في المفردات إمساكُ الشّيء: التعلّق به و حِفظُه. (الزبيدي، ١٩٩٣م، ج ٢٧: ٣٣٣) واصطلاحاً مجموعة من العلاقات النحوية والدلالية والمعجمية التي تزيد التلائم والانسجام بين الأجزاء المختلفة للنّص.

الفاصلة تُعتبر ممّا يُضفي على الآيات القرآنية جماليةً و إعجازاً في الأداء، حيث تلتذُّ الأذن بسمعها و تنتعش العين بالنظر إليها. قال في هذا المضمار بعض الباحثين ((الوظيفة اللّفظية للفاصلة في القرآن الكريم تعتمد على العوامل الآتية: أولاً: إنها تحسين للكلام وراحة للنفس عند التلاوة. حيث يحسن السكوت عليها وقد كمل المعنى أو قارب الكمال، بحيث يشهد الذوق بذلك ويدركه. ثانياً: تؤذن بانتهاء الآية وتميز بينها وبين التي تليها كما تميز قافية الشعر بيتاً من بيت. ثالثاً: تساعد الفاصلة على تلاوة القرآن مرتلاً مجوداً بأنغام آسرة ذات إيقاع جميل.)) (المطعني، ١٩٩٢م، ج ١: ٢٢٥)

إنّ الهندسةَ البيانية في القرآن الكريم تهدينا إلى عناصر جمالية قرآنية منها: الف) الأداء التّعبيري المناسب و يشتمل على التّعبير الفنّي بألوانه و أنواعه، منه الإيجاز والتّصوير

والقدرة الفنّية الفائقة. ب) الجرس الصّوتي الّذي يمنح تآلفاً بين الحروف والكلمات والتّراكيب. ج) الموضوعات المعالجة الّتي يعالجها القرآن الكريم بما فيها الموضوعات المبتكرة والأفكار الإسلامية القرآنية الّتي لا عهد للعرب بأمثالها. (حمدان، ١٩٩١م: ٤٣٢ - ٤٣٤)

أوّل ما نريد أن ندرسه في مقالنا هذا هو التماسك بين الفواصل من خلال المفردات المكرّرة في الفواصل، فطبعاً لا نعالج كلّ المفردات في كل أجزاء السّورة، إنّما نعالجُ المفردات الواردة في فواصل السورة لنري كيف يؤثّر هذا التّكرار على الالتحام الصوتي بين الفواصل كما نعالج أنّه كيف يؤثّر على القارئ حينما يقرأ هذه الآيات.

التكرار

التكرار من مظاهر التماسك الصوتي للفواصل و يمكن أن يتجلّى في تكرار الكلمة أو العبارة. حينما نرى التكرار في كلام عادي نحو قصيدة شعرية أو مقطعٍ من نثر نرى أنّ ذلك النّص قد لا يسلم من القلق و الاضطراب، إلا أنّه جاء في كلام الله محكما حيث يعجز عن كشف أخطائها الكافرون، و بما أنّ هذه الظاهرة من الظواهر البارزة في القرآن، فقد تعرّض لها المفسرون و البلاغيون و خاصة الباحثون عن إعجاز القرآن و جمالياته.

((التّكرار ظاهرةٌ بارزةٌ في البيان القرآني المعجز، و مظهرٌ من مظاهر إعجاز القرآن، وهو إعادة عرضٍ بعض الألفاظ أو الجمل أو الآيات أو المعاني أو الموضوعات، ولكنّ هذا التّكرار حكيم و مقصودٌ و مضيف، فعندما يكررُ القرآن ذلك يكرر لحكمة، يريد منها تحقيق هدف بلاغيّ أو دينيّ، كما أنّه مُضيف، يضيف القرآنُ في كلّ مرّةٍ لفظاً أو معنى، أو معلومة أو فكرة.)) (الخالدي، ٢٠٠٠م: ٣١١)

للتّكرار في القرآن ناحيتان:

النّاحية الدّينية و النّاحية الأدبية. أمّا بالنّسبة للنّاحية الدّينية فتقرير المكرّر والعناية الخاصة به كي يرسخ في بال قارئ القرآن. أمّا بالنّسبة للنّاحية الأدبية فدوره متعدّدٌ و إن كان الهدف منه تأكيد المعاني. (المطعني، ١٩٩٢م، ج ١: ٣٢٢)

تكرار المفردات

هذا النوع من التكرار يوجد في فواصل سورة ((ق)) بشكلٍ ملفت للنظر. وبما أنّه بين

التكرار و التماسك في الآيات القرآنية علاقة وطيدة سواء من جانب المضمون وسواء من الجانب الإيقاعي، فقمنا في هذا القسم بدراسة المفردات المتكرّرة في هذه السورة لنري تواتر المفردات ودورها في التماسك الصوتي.

هذا النّوع من التكرار يتجلّى في فواصل آيات هذه السّورة فنسلّط الضوء عليها عن طريق إحصاء المفردات.

وردت كلمة ((وعيد)) في فواصل هذه السّورة أربع مرات و هذه النسبة تساوي ١٠ بالمئة من فواصل هذه السّورة، فتبدو هذه الكمّيةُ كبيرةً. ((والقاعدة الأولية في التكرار، أن اللفظ المكرر ينبغي أن يكون وثيق الارتباط بالمعنى العام، وإلا كان لفظة متكلفة لا سبيل إلى قبولها. كما أنه لا بد أن يخضع لكل ما يخضع له الشعر عمومًا من قواعد ذوقية وجمالية وبيانية. فليس من المقبول مثلًا، أن يكرر الشاعر لفظًا ضعيف الارتباط بما حوله، أو لفظًا ينفر منه السمع)) (نازك الملائكة، ١٩٦٧م: ٢٣١). ومن المؤكد أن الله سبحانه و تعالى كوّنَ تماسكاً إيقاعياً و معنوياً خاصاً في تكرار هذه الكلمة متجنّباً عن إتعاب القارئ بحيث يذكّرنا الله أثناء قراءة هذه السّورة بإنذار عباده بالوعيد المكرّر في المواضع المختلفة من السّورة؛ في أوّلها، ووسطها وآخرها.

هناك مفردات أخرى تكرّرت مرتين أو أكثر في فواصل هذه السّورة حيث تكوّن تلائماً وتماسكاً إيقاعياً لطيفاً؛ إيقاعٌ لا يملّه السامع. ومن أمثلة هذا التكرار كلمة ((بعيد)) التي تكرّرت ثلاث مرات، و((خروج)) التي تكرّرت مرّتين و كذلك ((منيب)) المكرّرة مرّتين و ((عتيد)) المكرّرة مرتين.

التماسك في الفواصل الموزونة

لا ننوي أن نقارن بين القرآن و بين الشّعر لأنّنا نرى في هذا خطأ فادحاً و إثماً كبيراً، إذ أنّ القرآن أسمي من الشعر منزلةً و أرفع منه قدراً، إنّما نريد أن نعالج بعض الجوانب الموسيقية التي سبق و قلنا أنّها جزءٌ من كلام العرب لأنّهم كما قلنا في غير هذا الموضع قوم كانوا يسمعون أكثر ممّا كانوا يكتبون. كما قال بعض الباحثين: ((يتمثّل الإيقاع في انسياب الآيات انسياباً متناسقاً على نظام اختصّ به القرآن. فلا يُمكنُ أن نحكم فيه مقاييس علم العروض من تفعيلات أو أسباب أو أوتاد، و إن وردتْ بعض آياته على وزن الشّعر، سبب

ذلك أنّ القرآن منزّه عن الشّعر أصلاً. ولكن ذلك الإيقاع محسوس في القرآن على الرّغم من خروجه عن أوزان الشعر)) (الكواز، ١٤٢٦ق: ٣٢٩)

قد نرى في بعض فواصل سورة ((ق)) نوعاً من الإيقاع الذي يضفي على فواصل هذه الآيات جمالاً و حلاوةً تتلذّذ الآذان بمسمعها. علاوةً على ذلك هذا الجمال الإيقاعي قد يؤثّر تأثيراً كبيراً في نفس السّامع كما أثبت هذا التّأثير كتبٌ عديدةٌ عن إسلام الكفّار و المشركين فورَ سماعهم الآيات القرآنية. ((فالجرس الداخلي و الظاهري يوحي بأهمية تأثير الصّوت المتناسق، والجملة الصّوتية في النفس والوجدان لا من حيث التأثير التغييري وحسب بل من حيث التأثير الفني الجمإلي أيضاً. (حمدان، ١٩٩١م: ٢١٧)

حينما ننظر إلى سورة ((ق)) و نسمعها نلاحظ أنّ الفواصل لها تفعيلة خاصّة بها كما يكون للشّعر، فمعظم الفواصل تبني على وزن ((فاعلان)) عند الوقف و ((مفتعلن)) عند الوصل كما نرى في الأمثلة الآتية عبر الجدول التالي:

الجدول الثاني: وزن فواصل الآيات

الآية	وزن الفاصلة عند الوقف	وزن الفاصلة عند الوصل
فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ(٢)	أُن/عَ/جيبْ: فاعلان	أُن/عَ/جي/بُن: فاعلاتن
أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ(٣)	عُن/ب/عيدْ: فاعلان	عُن/ب/عي/دُن: فاعلاتن
قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ(٤)	بُن/ح/فيظْ: فاعلان	بُن/ح/في/ظُن: فاعلاتن
بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ(٥)	رِن/م/ريجْ: فاعلان	رِن/م/ري/جِن: فاعلاتن
أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ(٦)	مِنْ/فُ/روج: فاعلان	مِنْ/فُ/رو/جِن: فاعلاتن
وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ(٧)	جِن/ب/هيجْ: فاعلان	جِن/ب/هي/جِن: فاعلاتن
تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ(٨)	دِنْ/م/نيبْ: فاعلان	دِنْ/م/ني/بِن: فاعلاتن

وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ(١٠)	عُنْ/نَ/ضيدْ: فاعلان	عُنْ/نَ/ضي/دِن: فاعلاتن
أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ(١٥)	قِنْ/ج/ديدْ: فاعلان	قِنْ/ج/دي/دِن: فاعلاتن
مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ(١٨)	بُنْ/ع/تيدْ: فاعلان	بُنْ/ع/تي/دِن: فاعلاتن
أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ(٢٤)	رِنْ/ع/نيدْ: فاعلان	رِنْ/ع/ني/دِن: فاعلاتن

بما أنّ البيت الشعري أو الجملة في العروض يتم تقسيمهما إلى وحدات صوتيّة أو مقاطع صوتيّة فلهذا لاشأنَ لنا بالكتابة و الحروف و إنّما نعالج الأصوات و ما نسمعه، فقد ينتهي المقطع الصّوتي أو التّفعيلة في آخر كلمة، أو في وسطها و يلتصق آخر كلمة إلى الكلمة التّالية. (راجع: عتيق، ١٩٨٧م: ١٢). فعلى هذا نلاحظ في آية ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ مثلاً، أنّ التفعيلة جاءت على نحو ((أَن/عَ/جي/بُنْ)).

يجب أن نشير إلى ملاحظة هامّة وهي أنّ القرآن مهما درسنا فيه التفعيلات الشعرية لن يُقارَن بالشعر وهذا الأمر يعود إلى أن القرآن الكريم منزّه عن الشعر كما قال الله سبحانه و تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ (يس: ٦٩) و لكن حسب ما قاله بعض الباحثين ((ما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن إلا صور تامّة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى، و هي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقاً عجيباً يلائم نوع الصوت و الوجه الذي يساق عليها)) (رافعي، ١٩٧٣م: ٢١٦) و على هذا و من جهة الإيقاع الموسيقي و الانسجام الوزني للفواصل ليس هناك بأس أن يراعى هذا الانسجام و الإيقاع في القرآن الكريم بل يضفي عليه جمالاً وروعةً قلّما نجد مثله في كتاب أو نصّ آخر.

التلاؤم بين الصّوت و بين مضمون السّورة

تنقسم الأصوات في اللغة العربية إلى المجهورة و المهموسة. الأصوات المجهورة هي الأصوات الّتي يهتزّ الوتران الصّوتيان في الحنجرة عند نطقها و الأصوات الّتي لا يهتزّ الوتران الصّوتيان في أثناء النطق هي الأصوات المهموسة. الأصوات المجهورة في اللغة العربية هي: ((ب، ج، د، ذ، ر، ز، ض، ظ، ع، غ، ل، م و ن)) و الأصوات المهموسة نحو: ((ت، ث، ح، خ، س، ش، ص، ط، ف، ق، ك، ه)). (راجع: أنيس، لاتا: ٢١ و ٢٢).

((قد جاءت سورة ((ق)) تذكر النبي ﷺ وأصحابه بما كنا في بدء الدعوة الإسلامية من عناد المشركين الضالين السفهاء وقد تحوّلت بهم الأحوال، وأوشكوا أن يدخلوا في دين الله بعد أن كُسرت شوكتُهم، وبدأت غشاوة الضلال والسفه تنجلى عن أبصارهم، بما رأوا من إعزاز الله لدينه ونصرته لأوليائه)) (جمعة محمد، ٢٠١٧: ٣٢١)

قبل أن نبدأ بتحليل الأصوات و علاقتها بمضمون السّورة نتطرّق إلى إحصاء الحروف الموظّفَة في فواصل هذه السّورة و نقسّمها إلى المجهورة و المهموسة حسب ما أشرنا إليه سابقاً و الآن نأتي بالمفردات الّتي جاءت كفواصل في هذه السّورة:

الْمَجيد / عَجيبٌ / بَعيدٌ / حَفيظٌ / مَريج / فُرُوج / بَهيج / مُنيب / الْحَصيد / نَضيدٌ / الْخُرُوجُ / ثَمُودُ / لُوط / وَعيد / جَديد / الْوَريد / قَعيدٌ / عَتيدٌ / تَحيدُ / الْوَعيد شَهيدٌ / حَديدٌ / عَتيدٌ / عَنيد / مُريب / الشَّديد / بَعيد / بِالْوَعيد / لِلْعَبيد / مَزيد / بَعيد / حَفيظ / مُنيب / الْخُلُود / مَزيدٌ / مَحيص / شَهيدٌ / لُغُوب / الْغُرُوب / السُّجُود / قَريب / الْخُرُوج / الْمَصير / يسير / وَعيد

كما نلاحظ معظم الحروف الأخيرة لهذه المفردات (الراء، الدال، الباء و الجيم) تتضمّن ضمن مجموعة الحروف المجهورة أي أنّ هناك تماسكاً لطيفاً في الأصوات المجهورة الموظّفة في روي الفواصل. كما درسنا الحروف المجهورة في روي الفواصل ضمن الجدول التّالي:

نسبة تواتر الأصوات المجهورة والمهموسة في روي الفواصل

نوع الصوت	كمية الأصوات	النسبة المئوية
الأصوات المجهورة	٤٣	٪ ٩٥
الأصوات المهموسة	٢	٪ ٥
المجموع	٤٥	٪ ١٠٠

إذا تركنا المدود و المصوّتات المستخدمة في الفواصل جانباً، نلاحظ أنّ كثرة الأصوات المجهورة تلائم مضمون السّورة الغالب لأنّها ((سورة رهيبةٌ، شديدة الوقع بحقائقها، شديدة الإيقاع ببنائها التعبيري، وصورها وظلالها وجرس فواصلها. تأخذ على النفس أقطارها، وتلاحقها في خطراتها وحركاتها، وتتعقبها في سرها وجهرها، وفي باطنها وظاهرها. وهي

تعالج قضية البعث، وإنكار المشركين له و عجبهم من ذكره والقول به)) (سيّد قطب، ٢٠٠٣م، ج ٦: ٣٦٥٧)

نلاحظ أنّ حروف الرّوي في هذه السّورة (الراء، الدال، الباء و الجيم) من الحروف المجهورة الّتي تلائم مضمون السّورة الّذي يدلّ على الاضطراب و الإنذار و العذاب؛ الحروف المجهورة المستخدمة كرويّ لهذه الفواصل قمّة التلاؤم الّذي يمكن أن نجد بين الصّوت والمضمون في هذه السّورة. إذا نظرنا إلى سياق الآيات فوجدناها تتحدث عن الموت والبعث وحال المكذّبين به فهذا الجو المُرعب المخيف يأتي نتيجة توظيف البني الصّوتية التي تشكّلها الأصوات المجهورة فرسم صورة حية لموقف الكافرين القدامى وما نزل عليهم من العذاب والخزي.

التلاؤم بين لفظ الفواصل مع معناها:

حينما نقرأُ نصّاً أدبياً سواء كان النظم و سواء كان النثر نلاحظ أن الجمال في ذلك النصّ الأدبي ـ إذا كان ـ يتأرجح بين الشكل و المضمون، يعلو هنا و ينحدر هناك أو على العكس و لهذا نلاحظ النقاد و البلاغيّين أنّهم في ورطة من جدليّة ثُنائيّة بين الشّكل و المضمون، فمنهم من يهتمّ بالشّكل أو لنقل يهتمّ بالبناء اللّفظي و منهم من يفضّل الجانب المعنوي من النّص و قال الدّكتور عبدالرّحيم قافود في مقالة له: تُعتبر قضية الشكل و المضمون، أو اللّفظ و المعنى من أهمّ القضايا الّتي شغلت النقّاد العرب، و دار حولها الكثير من الخلاف و الانقسام. ففريقٌ ناصر اللفظ أو ((الشّكل)) و فريقٌ رأي أنّ الفضل في الأدب يعود إلى المعاني و ما الألفاظُ إلّا خدمٌ لها، فالعبقريّة و الإبداع و التّفاضل يرجعُ إلى قدرة الأديب أو الشّاعر. (قافود، ١٩٨٢م: ٦٢) و ((يرى السكّاكي أنّ أصلَ الحُسنِ في البلاغة أن تكون الألفاظ توابع للمعاني، لا أن تكون المعاني لها توابع فهو يعني ألّا تكونَ متكلّفةً.)) (عبدالمطلب، ١٩٩٤م: ٢٨٩) و لكن ما لا شكّ فيه أنّ هذا الجدال ليس في دراسة النماذج القرآنية باعتباره المثل الأعلي في الأداء الفنّي الّذي يبلغُ مرتبة الإعجاز.

فنحن في مقالنا هذا لا ننوي أنْ نفضّل جانباً من جانبي الكلام على الآخَر في هذا المقال، إنّما نُريد أن ندرس التّماسك بين الفواصل و معناها في سورة ((ق)) و تهتمّ هذه الدّراسة بالمعنى طوراً و بالشّكلِ طوراً آخر دون النّظر إلى تفاضل أيٍّ منهما.

من روائع الإعجاز القرآني تناسب اللّفظ القرآني مع معناه و هذه الظاهرة نلاحظها في فواصل سورة ((ق)) حيث تأتي الفواصل عنيفةً قويةً في مقام التهديد والوعيد، لأنّ ((هذه السّورة تذكر الدعوة وتشير إلى ما فيها من الإنذار بالمعاد وجحد المشركين به واستعجابهم ذلك بصيرورته تراباً لا يبقي معه أثر مما كان عليه فكيف يرجع ثانياً إلى ما كان عليه قبل الموت)) (طباطبائي، ١٩٩٧م، ج ١٨: ٣٤١) فمن أمثلة الإنذار والوعيد في فواصل هذه السّورة: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ (ق: ١٢-١٤)

وفي مقطعٍ آخر من السّورة قال سبحانه و تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ * وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ * لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ * وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ * أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (ق: ٢٠ - ٢٤)

فلينظر الإنسان إلى شدّة الألفاظ و نلاحظ مدي هذا العنف و الشّدة في فواصل هذه السّورة و من هذه المواضع أيضاً يمكننا أن نشير إلى الآيتين التاليتين: ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ * قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ * قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾ (ق: ٢٦ - ٢٨) حيث نجد الفواصل تراعي المعنى و جوّ السّورة و نلاحظُ أنّ إتيان الفواصل في مثل تلك الألفاظ تخلقُ جوّاً من الاضطراب و الإنذار الّتي هي من السّمات البارزة لهذه السّورة.

التّماسك الإيقاعي

سنحاول في هذا المبحث أن نسلّط الضّوء على الإيقاع الموسيقي في فواصل هذه السّورة ممّا أسفر عن تكوين لون من الجمال الّذي تتلذّذ الأذن بمسمعه.

قال ابن منظور تحت مادة الإيقاع في لسان العرب: ((الإيقاع من إيقاع اللّحن والغناء، وهو أنْ يوقع الألحان ويبيّنها، وسمّى الخليل رحمه الله كتاباً من كُتبه في ذلك المعنى، كتاب الإيقاع.)) (ابن منظور، لاتا، ج ٨: ٤٠٨)

الانزياح والإيقاع:

عندما نقرأُ هذه السّورة نلاحظُ تماسكاً إيقاعيّاً ملموساً و يمكننا القول أنّ الإيقاع في هذه السورة مميزٌ و أبرزُ من السّور الأخرى. لا شكّ أنّ الانزياح لعبَ دوراً هامًّا في فواصل هذه السّورة لكي يشعر القارئ إيقاعَها؛ بعبارةٍ أخرى إن الإيقاع أو الأثر الصّوتي على السّامع أصبح مبعث دراسات للمواضع الّتي عدل فيها أسلوب القرآن عن الأصول، مراعاةً للتّوافق الموسيقي في نظمه، مما اصطلح عليه بإيقاع المناسبة في مقاطع الفواصل، وله مواضع عديدة في القرآن الكريم. (راجع: الكوّاز، ١٤٢٦ق: ٣٤٠)

لدراسة علاقة الانزياح بالإيقاع يجب علينا أن نشرح الإنزياح أوّلاً ثم نتطرّق إلى دوره في إيقاع الفواصل. للانزياح معنيان الأول لغوي والثاني اصطلاحي، بالنسبة إلى المعنى اللغوي كتب ابن منظور معرّفًا الانزياح: ((نزح الشيء ينزح منع وضرب نَزْحاً ونُزوحاً بَعُدَ وشيءٌ نُزُحٌ ونَزُوحٌ نازح ونَزَحت الدارُ فهي تَنْزِحُ نُزُوحاً إِذا بَعُدَتْ وجاءَ من بلدٍ نَزيحٍ أَي بعيدٍ.)) (ابن منظور، لاتا ج ٨: ٦١٤)

أمّا بالنسبة إلى المعنى الإصطلاحي فيشرح عبدالسلام المسدّي في كتابه الأسلوبية والأسلوب: ((مصطلح (Ecart) عسير الترجمة لأنه غير مستقرّ في متصوّره لذلك لم يرض به كثير من روّاد اللسانيات والأسلوبية فوضعوا مصطلحات بديلة عنه، يمكن أن نصطلح عليه بعبارة التجاوز، أو أن نُحييَ له لفظةً عربيةً استعملها البلاغيون في سياق محدّد وهي عبارة "العُدُول": وعن طريقة التوليد المعنويّ قد نصطلح بها على مفهوم العبارة الأجنبية.)) (المسدّي، لاتا: ١٦٢ و١٦٣)

والانزياح في القرآن الكريم و خاصة في فواصل سورة ((ق)) من الوسائل التي تؤدي إلى التّماسك في الفواصل سواء من جانب المعنى و سواء من جانب الشكل و اللّفظ وبعبارة أدق موسيقى الآيات.

للانزياح مستويات عديدة بما فيها المستوي التّركيبي أو النّحوي الذي يختص بما يحدث في تركيب العبارات والجملات و المستوي الدّلالي أو البلاغي وذلك ما يدور حول البلاغة في الكلام و هناك مستويات أخرى و نصرف عن شرحها لأنّنا لا نعتمد عليها في مقالنا هذا، فإنما نسلّط الضوء على مستوي وحيد و هو الانزياح التّركيبي في الفواصل.

الحذف:

أول ظاهرة من ظاهرة الانزياح التركيبي في فواصل هذه السورة هي الحذف وهو أن يتم حذف أحد أجزاء الجملة، سواء كان مبتدأً أو خبرًا، فاعلًا أو مفعولًا ولا نقصد بهذا القول أنّه يوجد في القرآن حذف مضمون أو معني وإنّما نقصد الحذف في تركيب اللغة لغرضٍ من الأغراض كما يؤكد على هذا الأمر بعض العلماء. (راجع: حسّان، ١٩٩٣م: ٣٨٠).

التّفخيم و التّعظيم من خصائص الحذف ومحسّناته في القرآن الكريم ويُشير إليها ((الزركشي))؛ لأنّ القارئ يبحث عن حقيقة أوسع و أشمل من ذلك المحذوف و لهذا الحذف نماذج في بحثنا.

أول نموذج من نماذج الحذف في سورة ((ق)) أو بعبارة أصح في فواصل السّورة حذف كلمةٍ و يمكننا أن نشير إليه في الآيات التّالية التي حذف ضمير ((الياء)) و ذلك آية ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ (ق: ١٤) التي حذف ضمير ((ي)) كمضاف إليه بعد كلمة ((وعيد)) التي كان أصلها ((وعيدي)). و كذلك حذف هذه ((الياء)) في الآية الأخيرة لهذه السّورة ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (ق: ٤٥) على غرار الآية السابقة.

وحذف الياء هنا أحبُّ إلى أذن السّامع لتلاؤمها مع الفواصل الأخرى و لأنّ العرب قد تحذف الياء، وتكتفي بكسرِ ما قبلها منها قول الشّاعر:

كفّاكَ كفٌّ ما تُليقُ درهماً ... جوداً، وأخري تُعطِ بالسّيفِ الدّما

(الفرّاء، ١٩٨٣م، ج ٣: ٢٦٠)

وقد يُراعى هنا أيضاً النّسق الصّوتي و انسجامه، فإذا عريت القراءة من هذا التّوافق، فقد عريت من التّأثير النّفسي والوقع الحسن، لذلك فهو يضعها في مرتبة دون المرتبة الأولى.

يرى الدكتور دفّة بلقاسم أنّ مشكلة الفاصلة ليست علّة عامة، إذْ ليس من الصعب على القرآن أنْ يأتي بلفظة أخرى تؤدي المعنى نفسه والغرض ذاته من دون أنْ يتكلّف من ذلك حذفاً يشاكل به الفواصل السابقة، وقد يكون الحذف بسبب طول الآية، فلا يجوز إلا

في مقام يستدعيه ضرب من التناسب، كما في الآية المذكورة آنفا: (و الليلِ إذَا يسرِ) فبالإضافة إلى رعاية الفاصلة القرآنية القائمة على الراء المكسورة، تأبى أنْ تطول الكسرة بعد الراء في الفعل (يسر)، فيكون إطالة الصوت، وفي ذلك مراعاة لطول الفواصل التي تضمنتها الآيات، ولما كانت الآيات لا تحتمل ذاك الطول المقدر حذفت تناسبا للفواصل الأخرى (بالقاسم، ٢٠٠٩م: ١٨)

وهُناك دليلٌ آخر على اهتمام الله بإيراد الفواصل الموزونة ممّا جعل القرآن كتاباً حلواً سواءً من جانب اللفظ و سواءً من جانب المعنى و إليك (أيها القارئ) هذا الدّليل: ((لم يُهمل الله سبحانه و تعالى فطرة العرب بل إن القرآن الكريم نزل في أمّة أميّة تسمع أكثر مما تكتب. فلم يكن غريباً أن يهتمّ نص كتابها بالصورة الصّوتيّة المسموعة، فيأتي و فيه من ((التّقفية)) ذلك القدر الكثير الّذي يتلي عليهم، ويرتّل ترتيلاً يسمعون فيه ذلك النّمط من الموسيقي الّتي لا عهدَ لهم بها، و هم أمّة الشّعر و الموسيقى.)) (الحسناوي، ٢٠٠٠م: ١٧٧)

و قيل في حذف الكملة أو بعض الكلام في آي القرآن ((كان حذف ما حقه أن يذكر في الكلام من أهم مظاهر العدول التي درجت عليها بعض الأوجه القرائية في الوقف على رؤوس الآي، وقد توسل توجيه القراءة بذلك الملحظ إلى القول بتوافق الفواصل والمناسبة بينها)) (سعد محمد، لاتا: ٥٠٩)

من نماذج ظاهرة الحذف في فواصل هذه السّورة يمكننا أن نشير إلى قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ (ق: ٩) فـ((الحصيد)) صفة للنبت وقد نابت عنه، والتقدير: وحب الحصيد، وحذف المنعوت في هذه الآية لم يكن خلواً من الدلالة، فقد وقع الحذف للمنعوت؛ لتتوفر العناية على النعت؛ وبذلك استُغني عن المنعوت الذي يتساوى فيه كل ما يطلق عليه لفظ ((النبت)) وأُبقي على النعت الذي يعرض صورة من صور التدبّر والتفكير)) (جمعة محمد، ٢٠١٧: ٣٥٠)

وفي هذه السورة نماذج أخرى من الحذف نحو آية ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ (ق:٣) التي حذفت جواب إذا في قوله تعالى ﴿أإذا متنا وكنا تراباً﴾ محذوف يدل عليه قولُهم ذلك رجع بعيدٌ ولكن بما أنّ هذا الحذف لايؤثّر في الفاصلة وإيقاعها فلا نعالجه في بحثنا هذا.

لأنّنا بصدد دراسة الحذف الذي يؤثّر على الفاصلة سواء من الجانب المعنوي وسواء من الجانب اللفظي والإيقاعي. و في هذا المضمار يعتقد الفرّاء أنّ الحذف يقع في الأسلوب القرآني، إذا عرف المعنى، أو دلّ عليه دليلٌ سابقٌ لتتّفق الفواصل، فيجتمع فيه الحذف و مراعاة الفاصلة (الكوّاز، ١٤٢٦ق: ٣٤٠).

التقديم والتأخير:

مسألة التقديم و التأخير في اللّغة العربية تختلف عمّا يوجد في اللّغات الأخرى نحو الفارسية و الانجليزية لأنّ اللغة العربية فيها دورٌ هامٌّ للحركات الإعرابيّة الّتي تحدّد أجزاء الجملة و أكثر ما يحدث التقديم و التأخير في تلك الأجزاء دون أن يؤدّي إلى فساد في المعنى و لكن هناك أصلٌ في تركيب الجملة العربية و يُعتبر التقديم و التأخير عدولاً إذا حدث في الجملة. قال الجرجاني في التقديم والتأخير: ((هو بابٌ كثير الفوائد، جَمُّ المحاسن، واسع التصرُّف، بعيدُ الغاية، لا يزال يَفتَرُّ لك عن بديعة، ويُفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعُه، ويَلطُف لديك موقعُه، ثم تنظر فتجد سببَ أن راقك ولطُف عندك، أن قُدِّم فيه شيء، وحُوِّل اللّفظ عن مكانٍ إلى مكان (الجرجاني، لاتا: ١٠٦).

تنقسم الجملة في اللّغة العربية إلى الاسمية و الفعلية مرتّبةً على أساس خاصٍّ فعلى هذا يكون ترتيب الجملة الاسميّة على الوجه الآتي: المسند إليه مع توابعه + المسند + متعلّقات الإسناد و لكنَّ السّير على هذا النهج ليس ضرورياً لأنّ هناك أسساً تعبيريّةً و اعتبارات بلاغيّة تقتضي أنّ تكوّن الجملة في غير وضعها الأساسي و هذا المنهج نراه في الأنماط الأدبية الرّفيعة كالقرآن الكريم و الآثار النّبويّة و الأشعار الرّائعة و النثر الفنّي الأصيل (راجع: المطعني، ١٩٩٢م، ج ١: ٣٩) و نلاحظ من هذا النّمط في سورة ((ق)) حيث قال الله سبحانه و تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ (ق: ١٩) حيث تقدّم ((منهُ)) على ((تحيدُ)) لأنّ الأصل في هذه الآية قد كان ((وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ تَحِيد منْهُ)) فالتّقديم هنا يمكن أن يكون للعناية و الاهتمام لأنّ الأهمّيّة في هذه الآية ((المحيد منه)) وليس ((الحائد)) ويمكن أن يكون الغرض من هذا التقديم رعاية التماسك الصوتي للفواصل، فالمنهج العادي يأبى مثل هذا التّقديم، لكن الاعتبار البلاغي يوجبه.

تقديم ما يجب تأخيره في فواصل سورة ((ق)) يُظهر تماسكاً إيقاعياً جميلاً. قال ((محمد

عبدالمطلب)) في كتابه البلاغة والأسلوبية: أما مباحث التقديم والتأخير فتُمثل ـ في علم المعاني ـ أهمية خاصة، من خلال التركيب الذي يخضع بالضرورة لطابع اللغة ونمطها المألوف في ترتيب أجزاء الجملة، من حيث كان العدول عن هذا النمط بمثابة منبهات فنية يعمد إليها المبدع ليخلق صورة فنية متميزة (عبدالمطلب، ١٩٩٤م: ٢٧١ و٢٧٢).

وردت أمثلة أخرى لتقديم ما يجب تأخيره في فواصل سورة ((ق)) بما فيها آية ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ (ق: ٤٣) حيث تقدّم ((إلينا)) على ((المصير)). فلنلاحظ أنّ أيّ جماليات يضفي التقديم على هذه الآية؟ ندرك في النظرة الأولى أن التقديم يجعل الفاصلة في هذه الآية متماسكاً مع الآية اللاحقة ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ (ق:٤٤) إيقاعياً. كما أشرنا في غير هذا الموضع للتقديم فوائد بلاغية أخرى نحو الحصر والاهتمام؛ الملفت للنظر في التقديم و التأخير أنّه يمكننا أن نعتبر الغرضين البلاغي و الإيقاعي على حد سواء ولكن في هذه الآية الاعتبار البلاغي أي الحصر في ((إلينا المصير)) أقرب وأهمّ؛ لأنّه مع رعاية الفاصلة في هذه الآية و الآية اللاحقة ليس الفاصلة الغرض الرئيس من التقديم لأنّ معظم الآيات على روي ((الدال)) ولم يكن هناك ضرورة بالغة في الإتيان برويّ ((الرّاء)). الملاحظة الأخرى لهذه الفاصلة أنّ الآية التالية أيضاً تقدّم فيها ((علينا)) على ((اليسير)) ولو أراد الله سبحانه وتعالى أن يقدّم ((يسير)) و((المصير)) لمراعاة الفاصلة لكان بإمكانه أن يأتي بالآيتين حسب أصليهما والفاصلة كانت مراعاة أيضاً، كما نرى في الشكل التالي:

إِلَيْنَا الْمَصِيرُ ⟵ المصير إلينا

عَلَيْنَا يسِيرٌ ⟵ يسيرٌ علينا

هناك نموذج آخر للتقديم الذي أثر على التماسك الصوتي في هذه السورة وهي ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ (ق: ١٧) ((عن اليمين خبر مقدم، والشمال عطف على اليمين و قعيد مبتدأ مؤخر)). (درويش، ١٩٩٩: ٢٧٠) كما نلاحظ تقدّم الخبر على المبتدأ وكان أصل الكلام ((قعيدٌ عن اليمين و قعيدٌ عن الشمال)) فعلاوة على تقديم الخبر وتأخير المبتدأ حذف ((قعيد)) لقرينة لفظية موجودة. فنظرة سريعة على الفواصل السّابقة واللاحقة

تثبت لنا أنّ تأخير المبتدأ (قعيد) قد أثّر على مراعاة الفواصل وحفظ الإيقاع مع فواصل الآيات السّابقة و اللاحقة.

الإتيان بالنعوت:

نلاحظ في فواصل السورة أن هناك نعوتاً كثيرةً أضيفت إلى منعوته. ((فسورة ق احدى سور القرآن التي اعتمدت على الوصف والاستطراد، فقد شغل النعت مكاناً بارزاً فيها من أول السورة إلى نهايتها فلا تكاد تخلو آية من آياتها من النعت فقد بلغ عدد الآيات التي اشتملت على النعت بأنواعه المختلفة أربع وعشرون آية)) (جمعة محمد، ٢٠١٧: ٣٤٧)

من البديهي أن استخدام النعوت في الكلام ليس فيه شيءٌ من العدول؛ ولكن بما أنّ النعوت قد استخدمت كثيراً في فواصل الآيات فقد عالجناها في مبحث الانزياح. الملفت للنظر أنّ النعوت الواردة لو لم تكن في نهاية الآيات لما لاحظنا الجمال الإيقاعي في الفواصل. لا نقصد بهذا القول أنّ الله سبحانه وتعالى جاء بالنّعوت مراعاةً للفواصل فحسب؛ إنما نريد القول بأن هناك تماسكاً ملحوظاً بين الجانب المعنوي والإيقاعي مع الإتيان بالنعوت. من النعوت الواردة في فواصل هذه السّورة يمكننا الإشارة إلى ما يلي:

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) / هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) / ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) / وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤) / فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (٥) / وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) / وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) / لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) / هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥) / لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) / كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) / مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (٢٥) / فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) / وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧) / هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) / وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣) / يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (٤١)

((كثرة النعوت تؤدي إلى إثارة انتباه المتلقي بما يلقي عليه من عموم النّكرة، ثم يحدد ويخصص هذا التنكير من خلال الصفات، وقد أسهمت هذه العلاقة في تماسك آيات سورة ((ق)) وتشكيل دلالتها بصورة واضحة)). (جمعة محمد، ٢٠١٧: ٣١٧)

كما مرّ سابقا فإن النعوت لا تُوظَّف في الكلام العادي بهذه الكثرة ويمكن أن نعتبره خارجاً عن المألوف. فالإتيان بالنعوت في فواصل هذه السورة له دواع لفظية نحو مراعاة

الفاصلة والجمال الإيقاعي، كما أن له دواعي معنوية نحو زيادة تأثير الكلام وإزالة الإبهام عن الكلمة؛ مثلاً ((العذاب الشديد)) أشدّ تأثيراً من ((العذاب)) و ((كفّارٌ عنيدٌ)) أشد إثارةً للانتباه و الإنذار من مجرد ((كَفّار)).

إبدال الصيغ اللغوية

حينما نركّز على فواصل الآيات في سورة ((ق)) نلاحظ تغيّراً في بعض الصيغ اللغوية الّتي وردت في الفواصل عدلت عن لفظها إلى لفظة أخرى كما تأتي في النماذج التّالية. هناك أنواع من العدول بما فيه العدول من الفعل المبني للمعلوم إلى المبني للمجهول، أو العدول من مفردةٍ إلى أخرى و أمّا فيما سيأتي من بحثنا فنتطرّق إلى نموذج منه.

تهيمن في بنية العدول ثلاثة قوانين لغوية حيث يمكننا أن نعتبر عبارةً أو مفردة عادلين عن أصلهما و هي: قانون العطف، و قانون الجوار، و قانون التفصيل. (الحمادي، ٢٠٠٧: ١٩٧) فيما يلي قمنا بمعالجة الصّيغ الّتي تتغيّر حسب احدى القوانين الثلاثة و ندرسها كي نبحث عن كوامن النصّ القرآني و مظاهر الجمال فيه.

العدول عن مفردة إلى أخرى

هناك آية في سورة ((ق)) عدلت الفاصلة فيها عن كلمة إلى غيرها. وهي ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ (ق: ٣١) استخدم هنا كلمة ((غير بعيد)) بدلاً من ((قريب)). وإن قيل ليس هناك قانون ليوجب استخدام كلمة خاصّة في مكان خاصّ فنقول إن هناك أسباباً تدعو إلى إثبات عدول الكلام إلى غيره. كما قلنا كان هناك كلمة ((قريب)) أقرب إلى الذهن وأنسب من ((غير بعيد)). فلنعالج لماذا تغيّر هذا الأسلوب و ماهي الدوافع لهذا العدول؟ لنفترض أنّ الله سبحانه وتعالى كان قد جاء بـ((قريب)) هنا فماذا تصاب به هذه الآية من الخلل المعنوي أو اللفظي. بالنسبة إلي الخلل المعنوي فنقول إنه ليس هناك خلل معنوي واختلاف بين ((غير بعيد)) و ((قريب)) ولكن بالنسبة إلى الخلل الذي تصيبه لفظة ((قريب)) إلى الفاصلة فنلاحظ أنّ ((غير بعيد منصوب على الظّرفية لقيامه مقام الظرف؛ لأنّه صفته، أي: مكاناً غير بعيد، و أجاز الزمخشري نصبه على الحال)) (درويش، ١٩٩٩: ٢٧٧) ولو حلّ ((قريب)) محل ((غير بعيد)) لصارت الآية ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ قَرِيباً﴾. فكما نلاحظ هناك

خلل إيقاعي يحدث في فواصل الآيات لأنّ كلّها تنتهي بالحرف و لو كان ((قريباً)) لحلّ المدّ مكان الحرف فيصيب الفاصلة خللاً إيقاعياً.

من نماذج العدول عن مفردة إلى مثيلتها في فواصل سورة ((ق)) يمكننا أن نشير إلى قوله تعالى: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ (ق: ١٠) فقد وردت كلمة ((نضيد)) و هي عدلت عن أصلها الذي كان ((منضود)) إلى ((نضيد)) لأنّها وردت في موضعين آخرين في القرآن الكريم تحت عبارة ((منضود)): ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ (هود: ٨٢)) و﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ (الواقعة: ٢٩) وهذا الأمر يقتضي أن تكون الآية ((وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ منضودٌ)) فإنّما عدلت عن أصلها تماسكاً مع فواصل الآيات السابقة واللاحقة. يُمكن أن تقول ـ أيّها القارئ ـ لم يكن هناك بأسٌ من أن تأتي ((منضود)) بدلاً من ((نضيد)) ونجيب أن المشكلة تتعلّق بوزن الفواصل فليس بروي الفواصل فحسب فأشرنا إلى وزن الفواصل فيما سبق؛ لأنّ الوزن يقتضي أن تكون الفواصل على وزن ((فاعلان)) و لو كانت ((منضود)) لأصبح الوزن ((مفعولان)) وحينئذ لا يكون ثَمَّة تناسب بين هذه الفاصلة وبين ما قبلها وما بعدها من الفواصل.

مع كلّ ما ذكرناه من الدوافع و البواعث للتّقديم و التّأخير و العدول من صيغة إلى أخرى، الحقيقة التي يجب التسليم بها - ولا بديل لذلك أبداً - أن تحقيق الانسجام الصوتي في القرآن الكريم قد اختص بمثل هذه العوامل؛ و لكن يجب ألّا ننسي أن هذه التسهيلات لم تكن لرعاية اللفظ على جانب المعنى وإلا ما كنا نرى في آى القرآن مواضع كثيرة - وكثيرة جداً - تركت تلك الرعاية اللفظية وخولف بين الفواصل فيها مع إمكان مجيئها على نسق واحد. فهذه التسهيلات إنما أوفت بحق المعنى كما أوفت بحق اللفظ ولا شك في أن ما كان شأنه كذلك كان بالجودة والحسن أولى. (راجع: المطعني، ١٩٩٢م، ج ١: ٣١٧)

النتيجة:

توصّلنا إلى النتائج التّالية بعد أن درسنا التماسك الصوتي في فواصل سورة ((ق)):

لاحظنا أنّ هناك انسجاماً والتحاماً واضحاً بين فواصل هذه السّورة من جهة اللفظ والمعني، كما كوّن تماسكاً مع مضمون السّورة الذي هو الحديث عن الكفّار ومنكري المعاد.

هناك مسألة إيقاعية خاصّة لفواصل هذه السّورة وهي أنّ معظمَ أوزان الفواصل على غرار واحد وحسب تفعيلة عروضيّة خاصّة، كما تكون التفعيلات الشّعرية، فغالبية الفواصل وردت على وزن ((فاعلان)) عند الوقف و ((فاعلاتن)) عند الوصل حيثُ شكّل تلائماً إيقاعيّاً خاصّاً في هذه السّورة.

التّكرار في فواصل سورة ((ق)) خلق لوناً من الاتّساق الإيقاعي و المعنوي كما أنّه غيرُ مُملٍّ بحيث يشدّنا إلى التفكير و الاعتبار في موضوع السّورة.

النعوت الواردة في الفواصل تُضفي عليها الجمال الإيقاعي علاوة على الجانب المعنوي المحكم بإيراد النّعوت في نهاية الآيات.

العدول عن صيغة إلى أخرى كالإتيان بمفردة بدل مفردة أخرى و الحذف هما من مظاهر العدول و سببٌ من أسباب رعاية الفواصل و التّماسك الصوتي.

التّقديم و التّأخير في بعض الفواصل يمكن أن يكون للعناية و الاهتمام و يمكن أن يكون الغرض من هذا التقديم رعاية الفاصلة حيث يؤدّي إلى خلق انسجامٍ جمالي إيقاعيٍّ.

قائمة المصادر و المراجع

إن خير ما نبتدئ به القرآن الكريم.

١. ابن منظور. (لاتا). لسان العرب. الطّبعة الأولى. المجلد الثّامن. بيروت: دار صادر.

٢. أنيس، إبراهيم. (لاتا). الأصوات اللغوية، مصر: نهضة مصر.

٣. بالقاسم، دفة. (٢٠٠٩). نماذج من الإعجاز الصّوتي في القرآن الكريم ـ دراسة دلالية ـ. الجزائر، مجلة كليّة الآداب و العلوم الإنسانية و الاجتماعية. ص١ – ٣٥.

٤. الجرجاني، عبدالقادر. (لاتا). دلائل الإعجاز. حاشية محمود محمّد شاكر. قاهره: مكتبة الخانجي.

٥. جمعة محمد، محمد عويس. (٢٠١٧). أثر النعت في تماسك النص القرآني سورة ق نموذجا. جامعة أم القري. حولية كلية اللغة العربية بالزقازيق.

٦. حسان، تمام. (١٩٩٣). البيان في روائع القرآن. القاهرة: عالم الكتب.

٧. الحسناوي، محمد. (٢٠٠٠). الفاصلة في القرآن الكريم. ط ٢. عَمّان: دار عمّار.

٨. الحمادي، جلال عبدالله محمد سيف. (٢٠٠٧). العدول في صيغ المشتقات في القرآن الكريم. اليمن. جامعة تعز. ص١ – ٢٨٤.
٩. حمدان، نذير. (١٩٩١). الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم. ط ١. جدّة: دار المنايرة.
١٠. الخالدي، صلاح عبدالفتاح. (٢٠٠٠). إعجاز البياني و دلائل مصدره الرّباني. الطبعة الأولى. الأردن: دار عمّار.
١١. درويش، محي الدين. (١٩٩٩). إعراب القرآن الكريم وبيانه. المجلد ٧.ط ٧. دمشق و بيروت: دار اليمامة دار ابن كثير.
١٢. الرازي، محمد. (١٩٨١). التفسير الكبير و مفاتيح الغيب. الطبعة الأولى. الجزء التاسع و العشرون. بيروت: دار الفكر.
١٣. رافعي، مصطفي صادق. (١٩٧٣). إعجاز القرآن و البلاغة النبوية. ط٩. بيروت: دار الكتاب العربي.
١٤. الزبيدي، السيد مرتضي محمد الحسيني. (١٩٩٣). تاج العروس من جواهر القاموس. تحقيق: مصطفي حجازي. الجزء ٢٧. الكويت: التراث العربي.
١٥. الزركشي، بدرالدّين محمد. (لاتا). البرهان في علوم القرآن. ج ١. القاهرة: دار التّراث.
١٦. سعد محمد، أحمد. (لا تا). التّوجيه البلاغي للقراءات القرآنية، القاهرة: مكتبة الآداب.
١٧. سيد قطب. (٢٠٠٣). في ظلال القرآن. ج ٣. ط ٣٢. القاهرة: دار الشّروق.
١٨. طباطبائي، محمد حسين. (١٩٩٧). الميزان في تفسير القرآن. ج ١٩. ط ١. بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
١٩. عبد المطلب، محمد. (١٩٩٤).البلاغة والأسلوبية. الطبعة الأولى. بيروت: مكتبة لبنان ناشرون.
٢٠. عتيق، عبدالعزيز. (١٩٨٧). علم العروض و القافية. بيروت: دار النهضة العربية.
٢١. الفرّاء، أبو زكريّا يحيي بن زياد. (١٩٨٣). معاني القرآن. الجزء الثّالث. الطّبعة الثالثة. بيروت: عالم الكتب.
٢٢. فضل، صلاح. (١٩٩٢). بلاغة الخطاب وعلم النص. الكويت: عالم المعرفة.
٢٣. الكوّاز، عبدالكريم. (١٤٢٦ هـ.ق). الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم. ط ١. بنغازي: دار الكتب الوطنية.
٢٤. المسدّي، عبدالسلام. (لا تا). الأسلوبية والأسلوب. ط ٣. بيروت: دار العربية للكتاب.
٢٥. المطعني، عبدالعظيم. (١٩٩٢). خصائص التّعبير القرآني و سماته البلاغيّة. الجزء الأول. الطّبعة الأولى. القاهرة: مكتبة وهبة.
٢٦. نازك الملائكة.(١٩٦٧). قضايا الشعر المعاصر. الطبعة الرابعة، بيروت: دار العلم للملايين.